صفا واحدا وراء عرفات فهو عمود الخيمة

نحن اعترضنا كلما كان الاعتراض لازما على ما لم تتفق فيه وجهات نظرنا مع الرجل الذي نحمل له الإجلال والاحترام، والذي قاد ثورتنا ثم انتخبناه رئيسا لنا. وقد عبرنا أمامه عن أفكارنا ورفعنا صوتنا في المجلس التشريعي اعتراضا على الكثير من الأمور. ولكننا لسنا معارضة ولسنا محترفي اعتراض. ونعتقد على كل حال أن مصطلح الولاء ومصطلح المعارضة ومصطلح اليمين ومصطلح اليسار وغيرها من المصطلحات التي يستخدمها الغرب لا تنطبق على الوضع الفلسطيني، بل إن النظرية الغربية في الحكم وفي الديمقراطية برهنت في التطبيق على أنها لم تحقق سلطة الشعب وإنما سلطة الأقليات الأقدر على وضع الأغلبيات تحت وصايتها. ولذا فإن المصطلحات كلها بحاجة إلى مراجعة.

وهذا الهجوم الذي يصبه الإسرائيليون من كل جانب على الرئيس ياسر عرفات يدفعنا إلى المناداة بالجميع : صفا واحدا وراء عرفات. صفا واحدا وراء حق العودة. صفا واحدا وراء الأقصى..! فالصمود والثبات والدأب الذي أبداه هذا القائد الفلسطيني الاستثنائي، جعله عنوانا لهذه الثوابت العزيزة على قلوب الفلسطينيين والعرب والمسلمين والمسيحيين الأتقياء. وقد كان بوسعه أن ينال بركات الأمريكيين والذين يخدمهم الأمريكيون لو أنه في اللحظة الحاسمة هناك في كامب ديفيد لم يقل : لا. وهي هذه اللا التي نتشرف اليوم بدفع ثمنها من دمائنا وممتلكاتنا ومن تحمل الأهوال التي تنصب علينا، ومن مكابدة الخضات التي يعانيها الأطفال الفزعون من أصوات المدافع والصواريخ.. ومن جميع المكاره التي تقترن بالرباط ومسؤولياته.

إن الإسرائيليين معجبون بأنفسهم وبتقدير استخباراتهم، كما هو حال الأمريكيين تماما. وفي تقديرهم أن من الممكن عزل القيادة عن القاعدة لإضعاف الموقف العام ولتسهيل ضرب كل قوة على حدة. ويحسب شارون أنه داهية حصيف حين يدعي إنه سيعامل الفلسطينيين العاديين باللين وسيعامل الفلسطينيين المسؤولين بالقمع والقتل. فهل ينسى الفلسطينيون (العاديون) مذبحة قبية التي اقترفها في خريف عام ١٩٥٣ على رأس الوحدة ١٠١ حين حاصر القرية الصغيرة بستمائة جندي وقصفها بالمدفعية عن بعد ثم دخل إليها فوضع الشحنات المتفجرة حول منازلها وأوعز بالتفجير والناس (العاديون) داخل المنازل؟ وهل ينسى الفلسطينيون (العاديون) مذبحة صبرا وشاتيلا التي خطط لها وأشرف على تنفيذها عن كثب حين أدخل عملاءه المحليين فذبحوا بالسلاح الأبيض كل ساكن رجلا أو امرأة كبيرا أو صغيرا، ومثلوا بالجثث شر تمثيل؟ وهل ينسى الفلسطينيون أن طائرات شارون وكان في الاجتياح عام ١٩٨٢ وزيرا للحرب قد استهدفت مقرات ياسر عرفات المرة تلو المرة على أمل القضاء على قائد المعركة؟

إن شارون حاقد على ياسر عرفات وعلى شعب ياسر عرفات بالقدر نفسه. ولكن تقسيم الفلسطينيين بين قيادة وقاعدة، وبين تجار وعمال وموظفين، وبين أغنياء وفقراء، وبين شماليين وجنوبيين، كان وما يزال سياسة إسرائيلية ثابتة تهدف إلى ابتلاع كل قسم منهم على حدة.

وقد بدأت الموجة الحالية من الهجوم على ياسر عرفات عقب مؤتمر كامب ديفيد مباشرة، وباتت الآن لازمة من لازمات الإعلام الإسرائيلي. ومع هذه الموجة من الهجوم يفصح القادة الإسرائيليون، كما تروج بعض الإذاعات المعادية، عن أمنياتهم بتفكيك السلطة الوطنية

وانهيارها وانتشار الفوضى وعجز الأجهزة الأمنية عن السيطرة على الموقف. إن بضع مئات من اللصوص والحشاشين والساقطين الذين هم عدة المخابرات الإسرائيلية الباقون في مناطق السلطة الفلسطينية سولوا لأسيادهم أن الضائقة التي يعيشها الناس قد أفلحت في إحداث الشرخ القاطع ما بين الحكام والمحكومين.

لم تكن الوحدة الوطنية الفلسطينية أقوى ولا أمتن مما هي عليه اليوم. وقد تراجعت المآخذ على سلبيات السلطة وفساد بعض موظفيها إلى الخلف. وتأجلت إلى الحين الذي يفرغ الناس فيه من العدوان الإسرائيلي الماثل.

ولم يكن الالتفاف حول ياسر عرفات وزعامته أشد كثافة وإجماعا مما هو عليه اليوم. فالجميع يدركون أنه عمود الخيمة التي تجمع الجميع وتلم شعث الناس.

بالأمس دعونا بعالي الصوت من أجل الإصلاح ومعاقبة الفساد وتقويم الاعوجاج وإعادة النظر في التشوه الهيكلي الذي رافق بناء السلطة. وما زلنا ندعو إلى ذلك، لأنه أجدر أن يوفر متطلبات النصر. وسنظل ندعو لكي نكون أوفياء لرسالتنا وللشعب الذي وثق بنا في النيابة عنه والوكالة عن حقوقه.

ولكننا نفرق بين الشيء الذي نريده ويريده جميع الشرفاء الغيورين على وطنهم والذين يفهمون العلاقة مع القضية الوطنية على أنها علاقة عطاء.. لا علاقة نهب وشفط ولهط.. ولا علاقة صفقات مزدوجة مع سلع الاحتلال ومالية السلطة. نفرق بين فئة الصادقين واعتراضاتهم النبيلة وبين الشيء الذي يرجف به الإسرائيليون وصبيتهم والمرجفون في المدينة. فهؤلاء يريدون الشي ء الذي بدا من أفواههم والذي تخفي صدورهم أعظم منه : يريدون أن يشهدوا انهيار السلطة الوطنية الفلسطينية، وحلول الاقتتال والفوضى في الصف الفلسطيني ريثما يقوم شارون بتنفيذ خطته التي كانت مختمرة في ذهنه قبل زمن طويل من مداهمته المسجد الأقصى.. يريدون أن يدفنوا الحلم الفلسطيني حلم الاستقلال وحلم المجتمع القوي المعافى المؤمن بربه وبرسالته.. يريدون للفلسطينيين أن يتذابحوا وأن يشيع الأعداء من يتبقى من الفلسطينيين إلى ما وراء النهر. أولئك خليط من العدو الأجنبي ومن صبيته الذين تربوا على يديه، وهم الذين يريدون أن يرثوا ما ليس لهم، وأن يحكموا الفلسطينيين بالحديد والنار إلى ما لا نهاية.. ومن الأصناف الأخرى من صبية الاحتلال عندنا صنف محترفي المعارضة الذين يتخذونها تجارة رابحة يفيضها عليهم الأجانب بالملايين.

صفا واحدا وراء عرفات، الذي يعرف هؤلاء جميعا، وقد يستخدم بعضهم وهو يعرف أنهم دسيسة الأعداء، إلا أن الخوض في الأراضي الزلقة يتطلب جزمة من الكاوتشوك.

ثأر أمريكا عندنا

أشيع في أعقاب زيارة شارون إلى واشنطن أن الرئيس الأمريكي طلب من إسرائيل عدم استخدام طائرات الهيليكوبتر الهجومية من طراز أباتشي في شن هجمات على الفلسطينيين. ولا ندري من الذي أشاع ذلك، ولعلها بعض الصحف نقلا عن بعض وكالات الأنباء التي تستوحي أخبارها من تل أبيب أو من واشنطن. المهم أن تلك الطائرات قاذفة الصواريخ شوهدت بالعين المجردة (على الرغم من العتمة) فوق المنطقة الشمالية من بحر غزة، وهي تتعامد ثابتة في الجو وتلقي بحممها على مواقع متفرقة في بيت لاهيا وغزة مساء يوم الأربعاء من الأسبوع الماضي. ولكي يموه الإسرائيليون على العالم، بحيث تبقى الشائعة الكاذبة قائمة لصالح الطرفين

الحليفين، فإنهم أشركوا القطع البحرية الحربية في ذلك القصف. وهكذا صار في الوسع إحداث اللبس ما بين قارب من البحر وطائرة من الجو.

مهما يكن الأمر، فجميع الناس في منطقتنا يعرفون أن الولايات المتحدة هي المعتدية قبل أن تكون إسرائيل كذلك. فأمريكا هي الصوت الوحيد الذي صاح في وجه مطلبنا بإرسال قوات حماية لمناطقنا من قبل مجلس الأمن : فيتو! فتركنا رهن التنكيل من قبل سفاحين محترفين في ظل ميزان قوة مختل. وبذلك حجرت على ضمير العالم وحبست ضمير المنظمة الدولية في قمقم، وقالت لضمير الدول الأعضاء : اذهب فأنت في إجازة. بلى.. وذلك كله بعدما دججت إسرائيل بأحدث أدوات الموت التي هي صناعتها المفضلة.

فأي ثأر لك عندنا يا أمريكا؟

لا يجمعهم إلا الخوف

ثابر غلاة الحاقدين الإسرائيليين على القول إن ما يحدث بيننا وبينهم هو حرب، وإن كل شيء في حالة الحرب مسموح به (مع أن العالم كله يفرق بين الأعمال الحربية وبين جرائم الحرب). لكن تناقضهم مع أنفسهم وهو من خصائصهم البارزة في كل شأن من الشؤون يبدو في المفارقات التالية : إذا كنا في حالة حرب حقا فمعنى ذلك أننا كيان مستقل (بينما هم يرفضون الاعتراف لنا بأية سيادة). وإذا لم تكن لنا في نظرهم أية سيادة فمعنى ذلك أننا كيان تحت الاحتلال، ومن واجب سلطة الاحتلال حماية المدنيين وعدم الاعتداء على الأرواح والأموال (وهو ما يخالف السلوك اليومي لعسكر موفاز). فما تفسير ذلك كله؟

تفسيره بسيط. وذلك أن الإسرائيليين يأخذون من كل منطق ما يناسب مصلحتهم. وليس للحق وللحقيقة أي سلطان على غلاظ الرقاب!

ألم يقولوا نظريا إنهم يريدون السلام، في حين أنهم يستشعرون في السلام خطرا أشد من خطر الحرب؟ ألم يقولوا نظريا إنهم يحترمون الأغلبية التي حشرهم المشروع الصهيوني وسطها في هذه المنطقة من العالم، ويريدون لها الخير، في حين أن شغلهم الشاغل تفكيكها وتسليط الأقليات فيها على الأغلبية وتسليط الأجانب على أهل البلاد؟ ألم يمارسوا في فلسطين قبل عام ١٩٤٨ إرهاب العصابات الخارجة على قوانين الانتداب البريطاني، وبعد عام ١٩٤٨ إرهاب الدولة المستهترة بالشرائع السماوية والوضعية والدولية ثم ادعوا أن الفلسطينيين إرهابيون وأن العرب متوحشون؟

إنهم يفكرون تفكيرا متناقضا. ويتصرفون تصرفات متناقضة. ويعيش مجتمعهم منقسما على نفسه : نصفه يمين ونصفه يسار، ولا جامع يجمعه إلا الخوف.

مؤتمر القمة العربي

انعقد وانفرط وتمخض عن أسوأ ما توقعه المتوقعون." اذهب أنت وربك فقاتلا. اذهب أنت وأطفالك فارجموا بالحجارة. واذهب أنت وشعبك فكابدوا الحصار والجوع والمواليد المشوهة بفعل قنابل اليورانيوم. خذ نتفة من مال واتركنا لمواعيدنا الليلية مع نسوتنا (الشرعيات وغير ذلك)، ولمواعيدنا النهارية مع جيوشنا (التي تحفظ حدودنا ضد الأشقاء المجاورين وغير ذلك)، ومواعيدنا النهارية مع جهود التنمية (التي يأكلها التضخم والزيادات السكانية ونفقات جيوش

الحماية الأجنبية وغير ذلك)، ومواعيدنا النهارية مع طالبي إحساناتنا (ولو أن معظمهم نصابون وغير ذلك). إنها عجلة دائرة. ونحن دوارون معها. نحن متأرجحون في أرجوحتها التي ينفسها علينا الحاسدون." ذلك كان لسان حال الكيانات المشتغلة بذاتها، وهي تحسب أنها في غنى عن الجميع شريطة أن يتركوها في حالها.

لقد قيل الكثير تعليقا على أعمال القمة العربية الأخيرة وقراراتها والأجواء بين كواليسها. ولكن كل ما قيل قاصر عن تصوير المغزى المعنوي لهذا العجز التاريخي الشائن عن الرؤية وعن الاتفاق وعن الفعل.. قاصر عن وصف مدى الأثر السلبي ومدى الخسارة التي تصيب المستقبل العربي جراء هذا العجز.

عجز شائن عن الرؤية : لأن حالة الواقع العربي الحالي تقدم صورة فاجعة للكيان القومي كله، وكذلك لحال كل بلد على حدة.. فالكيان القومي مفكك مستضعف فاقد الوزن في الساحة الدولية. والثروة الاقتصادية القومية خرجت من يد أصحابها إلى يد الأجانب الذين جثموا فوقها ليستمروا في نهب منابعها، وفرضوا لقوات الاحتلال أجرا على احتلالها بذريعة حماية الأخ من أخيه. والأنظمة العربية لم تكن أشد تباعدا وتباغضا في يوم من الأيام مما هي اليوم. أما الدول العربية بمفرداتها : فالغنية بعوائد النفط كانت منذ البداية غير حرة في استخدام تلك العوائد كما تشاء، لأن الأمريكيين ربطوا ما بين وجودها في بنوكهم وبين ما يدعى استقرار الاقتصاد العالمي. ثم انتهى الأمر كما يعرف الجميع إلى شطب الأرصدة، بحيث صارت تلك الدول مدينة بعدما كانت دائنة.

أما الدول الزراعية ذات الحظ الأقل من الثروات والحظ الأعلى من التعليم والتكنولوجيا، فوضعوها في أحوال الاقتتال الداخلي أو الحصار المطبق لإعاقة تطورها وحرمانها من أي نصيب من القوة.

وهي الخطة الدائمة المستمرة والمشتركة بين الإسرائيليين والأمريكيين مهما تعددت العهود وتوالى الحكام، وآخرهم جورج بوش الابن الذي أبى إلا أن يسئ بأكثر مما أساء والده.